

نقلنا عن مجلة الشهاب في جُزئها الأول من المجلد الخامس عشر، المصادر يوم الثلاثاء غرة محرّم 1358 هجرية الموافق ل 21 فيفري 1939 للميلاد

المكتاب: المزارر إلى الله

والسّماء بنيانها بأيدي وإنّ لموسعون - والأرض فرشناها فنعم الماهدون - ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكرون -

فروا إلى الله إنّ ي لكم منه نذير مبين - ولما جعلوا مع الله إلها آخر إنّ ي لكم منه نذير مبين (

تمهيد: المقصود الأساسي من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك وترغيبهم في النجاة، ولما سبيل إلى ذلك إلى المزارر إلى الله، فمهد لذلك بالآيات الثلاث الأولى للترغيب فيه، وختم بالخامسة لبيان المزارر الصحيح المنجّي عند الله.

الآية الأولى:

الألفاظ والتراكيب: السّماء هي الجرم الأعظم الذي أحاط بالأجرام السابحة في الفضاء كلّها وعلا عليها، بنيانها: ضمنا أجزاءها بعضها إلى بعض بغاية الدقة والإحكام فكانت كالقبة فوق الجميع، بأيدي: بقوة، لموسعون: لمقدرون ومُطيقون، على احتمال أن يكون من الموسع بمعنى القدرة والطاقة، أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها على احتمال أن يكون من السعة، وقدمت السماء لأنّها المشاهد المحسوس الذي تقوم به الحجّة، وليقع البناء عليها مرتين على لفظها وعلى ضميرها لأن الأصل: وبنيان السّماء بنيانها، لتحقق أنّها مبنية وأنّ بناءها لم يكن إلّا من الله المقادر الحكيم، ولذلك علق بالفعل على قوله بأيدي، والجملة الحالية تدل على أنّ الإيساع ثابت له عند البناء فذلك البناء العظيم لم يُنقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه.

المعنى: أنّ هذه القبة التي أحاطت بكم من جميع الأرجاء نحن بنيانها بقدرتنا ذلك البناء المُحكم المُتقن بنيانها ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا، أو نحن على قدرتنا وطاقتنا في إفاضة الخيرات والبركات منها عليكم، — هذا على أنه من الموسع — أو بنيانها وقد وسعنا أديمها حتّى أحاطت بهذه الأجرام السابحة التي منها ما لا يكون معه جرم المكررة الأرضية إلّا كحمصة فوق مائدة كبيرة، — هذا على أنه من السعة —.

تحقيق آية كونيّة من الآيات القرآنيّة: السّماء في اللغة هي كلّ ما علاك، فكلّ ما علا الأرض من سُحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء وكلّ هذه مُتقنة المصنوع مُحكمة الموضع مُتلاحمة الأجزاء مُرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً مُقدراً بالمسافات المُدققة التي لا يكون معها تصادم ولما ارتخاء ووضعها على هذه الصورة المُنظمة المُحكمة هو البناء وعليها كلّها ينبغي أن يُحمل لفظ السماء في الآية المُتقدمة وقد جاء لفظ السماء في القرآن مُراداً به القبة المحيطة في مثل (>> ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح >>) (>> إنّنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب >>) وجاء مُراداً به السحاب في مثل (>> والذي نزل من السماء ماء بقدر >>) فإنّ المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى: (>> ألم تر أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله >>) وجاء مُراداً به طبقات الجو في مثل (>> ويُنزل من السماء من جبال فيها من برد >>) والبرد يتكور في طبقات الجو، والمُتتابع لمواقع لفضة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا.

الآية الثانية:

الألفاظ والتراكيب: الأرض هي هذه الكرة التي نعيش عليها , فرشناها : بسطانها بزینتها ومناقعها , الماهدون : من مهّد الشيء وضعه وسواه وهي آة للنوم والجلوس والراحة , ويجري في تقديم الأرض ما تقدم في تقديم السماء , ومن يسير على هذا البساط المفروش ويطلع على ما دئی فيه من أسباب الحياة لكل ما فيه من حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والمثناء على من هي هذه الهيئة ومهد هذا التمهيد ولذا قرنت الجملة الأخيرة بالمفاد فقيل فنعم الماهدون , ولما عني فرش الأرض عن مهدها لأن المهدي يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد وأسباب للعيش على أديمها والتنعيم بخيراتها .

المعنى: إن الأرض التي أنتم مُتمكّنون من الوجود على ظهرها والسيّر في مناكبها والانتفاع بخيراتها نحن فرشناها لكم وهي أنا لكم أسباب الحياة والسعادة فيها على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه , مما نستحق به منكم الحمد والشاء .

دقيقة كونيّة في الآية القرآنيّة: شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه , وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه فإن تحت القشرة العليا من الأرض المواد المصهورة والمياه المعدنية والأبخرة الحارة مما تنطق به البراكين المُنشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة فكانت القشرة العليا من الأرض مثل الفراش تماما .

الآية الثالثة :

الألفاظ والتراكيب: من كل شيء : من كل جنس من الأجناس , خلقنا : كوّننا , زوجين : فردان مُتباينان يكمل أحدهما الآخر في عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد , تذكرون : تذكرون ما أودع في فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بعقولكم في عجائب الخلق فتدركون ما له جل جلاله من الألوهية والربوبية والوحدانية , وقدم – من كل شيء – لأن الأشياء هي المُستدل بها وليبعث الهمم على النظر فيها .

المعنى: إنّا خلقنا الأشياء التي تُشاهدونها على الزوجية والتراكيب من شئين مُتضادين لتكوّنوا , بحيث يُرجى منكم أن تعلموا أنّ النقص والعجز عمّ المخلوقات كلّها لحاجة كل شيء منها إلى ضده , وقصوره بنفسه , فالقدرة والكمال للخالق وحده فلا يستحق العبادة سواه فاعبدوه ووجّدوه .

توسّع في التذكير: النّظر في الأزواج مُفضّل للعلم بما ذكرنا وللمعلم بأنّ الخلق غير صادر عن طبيعة الأشياء فإنّ النّار – مثلا – لا يصدر عنها التبريد والتسخين لأنّ السبب لا ينتج المضادين فالمخلوقات كلّها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مُختار وللمعلم

بوجوه كثيرة من إحاطة علمه وشمول حكمته وعموم نعمته .

حقيقة نفسية في نُكْتة بلاغية: إذا نظر العقل في هذه الأزواج وفكّر انكشفت له وجوه سرّ دلائل الربوبية والأدوية والمتّوحيّد وإذا حصل الانكشاف الأوّل تبعته انكشافات , فإذا حصل منه المتذكر أفضى به إلى تلك الوجوه الكثيرة ولهذا نزل الفعل منزلة الملّام الذي لا يُراد منه إلا حصول الحدث .

آية كونية في الآية القرآنية: من الأزواج ما هو ظاهر مُشاهد معلوم من قديم مثل السّماء والأرض , والمليّ والمُنهار والمحرّ والمبرد والمذكر والأنثى في الحيوان وبعض النبات , ومنها ما كشفه العلم بما مهّد الله له من أسباب الجزء الموجب والجزء السلب في القوة الكهربائية وفي الذرة التي هي أصل التكوّن فلا فردية إلا لخالق هذه الأزواج كلّها الذي أنبأنا بها قبل أن تصل إلى تمام معرفتها العقول فكان من معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الإنسان في العلم والمُعران .

بلاغة التّويع والتّزليل: لمّا كانت السّماء مُتلاحمة الأجزاء في العلاء ثابتة على حالة مُستمرّة في هذه الدنّيا على المبقّاء ناسبها لفظ المبناء , ولمّا كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة , ولمّا كانت الأرض يطير أعليها التبدّل والتغيّر بما يُنقص البحر من أطرافها وبما قد يتحوّل من سهولها وجبالها وبما يتعاقب عليها من حرث وغرسة وخصب وجذب ناسبها لفظ المُراش الذي يسط ويطوى ويبدّل ويغيّر ولمّا كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة لضرورية للحياة عليها وكلّها مُهيّأة وكثير منها مُشاهد وغيره معدّي توصل إليه بالبحث والاستنباط — ناسب ذكر التمهيد , ولمّا كانت الأزواج مُكوّنة بعضها من بعض ناسبها لفظ الخلق ولمّا كان النّظر في الزوجين هو نظر في أساس التكوّن لتلك المذكورات السابقة وهو مُحصل للعلم الذي يحصل من النّظر فيها قرن بلفظ المتذكر .

الآية الرابعة :

الألفاظ والترّكيب: الفاء لترّتيب لأنّ ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهي مخلوقة موسومة بسمة العجز والنّقصان فلا يصلح شيء منها للتّعويل عليه فلم يبق إلا الخالق القادر ذو الجلال والإكرام فهو الذي يفرّ إليه دون جميع المخلوقات , فرّوا : هربوا , النّذير : المّعلم بما فيه هلاك لتجنّب الأسباب المؤدية إليه , المّبين : الذي يوضّح ما أنذر منه والأسباب المؤدية إليه والموسائل المّنجية منه , مع إقامة الحجّة على صدقه ونّصحه , وقدم لكم لي فيد اهتمامه بهم وذلك ليحبّهم إليه فيستمعوا لنّصحه وبعده منه ليبيّن مصدر رسالته وذلك ليبيّن لهم أنّه مأمور فلا يستكبروا عن قبول دعوته , وأكّد الحجّمة لأنّهم في مقام التردد أو الإنكار .

المعنى: هذه المخلوقات كلّها عاجزة في نفسها مُفتقرة — ابتداء ودواما — إلى خالقها فاهربوا من شرّها إلى خالقها فهو الذي يُنجيكم ويهديكم إلى خيرها ولما تغتروا بشيء منها فإنّها لا تملك حفظا لنفسها فكيف تملكه لغيرها , إنّي أحذركم الهلاك إذا اغتررتم بها وقطعتكم عن خالقها ولم تهربوا إلى الله منها وقد أبنت لكم مصدر الهلاك وطريق النّجاة .

نُكْتة التذويع: جاءت المثلث الآيات الأولى كما يكون قولها من الله ، وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبي صلى الله عليه وسلم تنويحا للخطاب وتننا ، فإنه لمّا كان ما في هذه الآية هو المقصود حول أسلوب الكلام من الإخبار إلى الأمر تجديدا لنشاط المسامع وبعثا لاهتمام المخاطبين وحثا لهم وتوكيدا عليهم ، وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما يقوله الله في وجوب الإيمان والامتثال .

بيان وتوحيد: هذا العالم بسمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال وما فيه من قوة وما فيه من سلطان ، وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهواؤه وسُلط عليه الشيطان يغويه ويؤذي له ، فكل هذا العالم إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغواء الشيطان وتزيينه فإنه ينحط إلى أسفل سافلين ويصير عبدا لأهوائه وشهواته وشيطانه ولكل ما فتنه من العالم وذهب بل به ، وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه ، فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه ولما يكون هذا الفرار منه إلما إلى خالقه بالإيمان به ، والتصديق لرسله ، والدخول تحت شرعه فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حدا لأهوائه وشهواته وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة فيستغلها بهداية الشرع مفرقا علميا وعمليا — بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه ، فتتضاعف عليه منها الخيرات والمبركات ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وإيمانه ويعظم لله بره وشكرانه ، فيكون له ذلك العالم من جنّة الدنيا وقنطرة لجنّة الأخرى ، ويفوز من الدارين بالمبتغى ، كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها فس لم من شرها وفاز بخيرها فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجى ومن فر من المخلوق إلى شيء من مخلوقاته كان من المهالكين .

إرشاد وتعميم: كل ما يُصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخُصوماتها ومن جميع بلائها لا يُنجيه من شيء منه إلما فراره إلى الله ، ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفي المواضع الدنيّة ما يُهون كل مُصائب ، وفي الهداية القرآنية والمسيرة النبوية ما يُنير كل سبيل من سبل النجاة والمسعادة في الحياة ، يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنونيون ، واسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

تنبيه على وهم: ليس الفرار من الأمراض بمُعاجلتها ومن المصائب بمُقاومتها فرارا من الله لأنّ الأمر اض هو قدرها والأدوية هو وضعها ودعا إلى استعمالها والتعالج بها وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مُقاومتها فكلها منه بقدره والإنسان مأمور منه بأن يُعالج ويُقاوم فما فر من قدره إلما إلى قدره ولهذا لمّا قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في قصة الموباء : أفرارا من قدر الله يا عمر ؟ قال عمر : نعم نضر من قدر الله إلى قدر الله >> وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى الله يرجو منه الخير في غيره .

تحذير من جهالة: ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران وتشديد المدينة بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها ، وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه وقد ضل قوم فزعوا ذلك طاعة وعبادة فعطّلوا الأسباب وخالفوا المشريعة وحادوا عما ثبت من السنّة وفيهم سئل إمام الحديث والسنّة أحمد بن حنبل رحمه الله ، سئل عن المقاتل أجلس لا يعمل شيئا حتى يأتيه رزقي ، فقال : << هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الله جعل رزقي تحت رمحي ، وقوله :

تغدو خماسا وتروح بطانا

وكان الصّحابة يتّجرون في البرّ والبحر ويعملون في نخيلهم وبهم القدوة

>> .

تطبيق: إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا فأما إحداهما فالتجأت إلى المسّ لطان تستغيثه وتستعين به وتحطب في حبله ، فأغاثها وانتقم لها وأمدّها وقربها وأدناها ، وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ولم تستنصر إلا به ولم تعتمد إلا عليه ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام وما فيها من خير عام لجميع الأنام وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى ومن تولته وهربت إليه ، — إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما — يقينا — الضارة من الله والضارة إليه فكنا — إن كنا مؤمنين — مع من فر إلى الله .

الدّآبة الخامسة :

الألفاظ والمتر الكيب: ولما جعلوا : ولما تضعوا من عند أنفسكم ما لا وجود له ، إلها : معبودا تخضعون له وترجون منه المتصرف في الكون ليجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضرر . وتقدمت ألفاظ آخر الآية .

المعنى: ولما جعلوا في فراركم إلى الله شيئا معه من مخلوقات تعتمدون عليه وتلتجئون إليه فتكونوا قد أشركتم به سواه فإنّي أحذركم ما في ذلكم من هلاككم بالشرك الذي لا يقبل الله معه من عمل وإنّي قد أبنت لكم لزوم توحيده في الفرار إليه كما بيّنت لكم لزوم ذلك الفرار .

نُكّته المتكبر: أعاد إنّي لكم منه ذمير مُبين مع الآية الخامسة ليبيّن لهم أنّ عبادة الله مع الإشراف به كتعطيل عبادته ، فهلاك المُشرك كهلاك المجاهد ، والنّجاة أن تعبدوا الله ولما تشركوا به شيئا لا في ربوبيّته ولما في ألوهيّته .

تنبيه وتحذير: جاء في الحديث فيما رواه أصحاب السنن أنّ الدّعاء هو العبادة فمن دعا غير الله فقد عبده ومن دعا مخلوقا مع الخالق فقد أشرك فإذا دعوت فادع ربك ولما تدع معه أحدا ، وكيف تدعو من لا يملك لنفسه نفعا ولما ضرا ، وإذا توسلت فتوسل بأعمالك بإيمانك وتوحيدك وبيات باعك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحبتك فيه واعتقادك ما له عند الله من عظيم المنزلة وسمو المقام عليه وعلى آله الصّلاة والمسّ لام .

بيان نبويّ قولي: قال عليه الصّلاة والمسّ لام فيما يُقال عند النّوم : (لا ملجأ ولما منجى منك إلا إليك) والملجأ هو المهرب الذي يهرب إليه ، والمنجى هو مكان النّجاة فبين لنا أنه لا يكون المهرب إلا إلى الله ، ولما تكون النّجاة إلا بالمهرب إليه فمن هرب لغيره كان من المهالكين ، كما بين أن كل ما يجري في هذا العالم فهو بخلقه بقدره فلا مهرب ولما نجاة ممّا خلق وقدر إلا إليه .

بيان نبويّ عملي: روى أحمد وابن جرير عن حذيفة ابن اليمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا حزّبهُ أمر صليّ ، وفرزع للصّلاة يعني إذا نزل به مهم أو أصابه غم فرزع للصّلاة ، فبين لنا بالفعل أن الفرار إلى الله بالتلبس بطاعته وصدق التوجه إليه ، والدّعاء والتضرع والخشوع له ، والاستسلام لدينه وشرعه والإخلاص في عبادته والاعتماد عليه ، وذلك كله موجود على أكمله في الصّلاة التي هي عمود الدين ومظهر كماله .

جعلنا الله من الفائرين إليه والمقبولين لديه , آمين .